مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث
Journal of Scientific Development for Studies and Research (JSD)
P- ISSN 2709-1635 E-ISSN 2958-7328

المجلد 4 / العـدد: 16 (2023)، Volume 4, Issue 16
ص 31 – 48

نظرية البلاغة بين جاذبية الأصالة ومغريات الحداثة عند عبد الملك مرتاض ومحمد العمري

ميمونة مقيدش[1]*

[1] جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

The theory of rhetoric between the attraction of originality and the temptations of modernity, Abd el-Malik Murtad and Muhammad el-Omari

Meymouna mekaideche[1]

[1]https://orcid.org/0000-0006-0168-5717

University Sidi Bel Abbes, (Algeria), mimounamekaideche93@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/06/16 تاريخ القبول: 2023 /08/21 تاريخ النشر: 2023 /12/01

ملخص:

من المتعارف عليه منذ القدم أنّ الأدب يوجد أولا ثمّ ينشأ النّقد ملازما له ويظهر في صورة بسيطة لا تتجاوز العفويّة والتلقائيّة، هذه الممارسة النّقديّة التقليديّة يعتمد فيها الناقد على الذوق والعاطفة أثناء محاولة القراءة والتّدقيق في إصدار أحكامه التقييميّة اتّجاه ما يعرض عليه من أعمال يميّز فيها الجيّد من الرديء؛ غير أنّ ما آل إليه النّقد اليوم كونه كتابة قوامها المعرفة نتيجة ثورات فكريّة متعاقبة جعلت له انتماءات أيديولوجيّة وثقافيّة، ربطت ممارساته باتّجاهات ونظريات معرفيّة مختلفة نظرا لارتقاء العمل الإبداعي، الأمر الّذي من شأنه طرح محاولات نقديّة تتجاوز النّقد التأثيري القائم على الشعور إلى النّقد الموضوعي القائم على العقل.

يتمخض عن هذا التغيير ظهور وتراكم مصطلحات كثيرة تتبنى مفاهيم عديدة سيما في النقد الحديث، حيث يجد المتلقي نفسه تائه الفهم في مدلولات المصطلح مشوش الادراك حول دقة صيغه نتيجة اختلاف الظروف والبيئة الناشئ فيها؛ ولتقليص الهوة بين ضفاف المعمورة ونحو محاولة ضبط مصطلحات الفكر النقدي عامة والعربي تحديدا، سجلت عدة اجتهادات حديثة حوت عدة مواضيع نقدية لعل قضية البلاغة أبرزها، ولنا في محاولة عبد الملك مرتاض ومحمد العمري نموذجين يستوجبا المعاينة.

كلمات مفتاحية: النقد، نظرية، البلاغة، الأصالة، الحداثة.

Abstract:

Recent monetary changes give rise to many new terms and concepts; it is necessary to stand on the terms, adjust their significance, and take note of the circumstances of their development remove interference from the receiver; critical jurisprudence tried to adjust many terms, such as rhetoric, the subject of intervention.

Keywords: criticism; theory; rhetoric; originality; modernity.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

لعلّ التّغيّرات الطارئة على أشكال المعرفة عبر الأزمان والعصور انطلاقا مما تشهده تمظهرات الأطر الاجتماعيّة ينتج عنه تطوّر على مستوى الأنساق المعرفية الحاملة لمعالم التّفكير والبحث، إثر ذلك تتأسس معارف جديدة لظواهر عديدة تشترط مواكبة تلك التّغيّرات باعتبارها منظومات ومقولات كبرى تسهم في تكوين منهج قويم سلس التّعامل مع المواد المراد دراستها.

وذاك هو حال النّقد والخطاب اليوم، كون الأوّل عملية وصفيّة مواكبة لعملية الإبداع يتمّ من خلاله تبيان مواطن الجودة والرداءة على مستوى الخطاب الّذي –هو نتاج عملية إبداعيّة –يعدّ محور قيام الدّراسات النّقديّة وهدفها الأسمى تناولا وتحليلا، وفق آليات تطبيقيّة معينة تواضعت عليها نظريات متعدّدة.

ولعلّ أهمّ الدّراسات النّقديّة الّتي من شأنها احتواء الخطابات منذ الأزل هي البلاغة الملازمة الأبدية للنّقد الأدبي؛ إذ أوّل ميدان لتفعيل إمكانياتها كان النّص الشّعريّ فالقرآنيّ ثم بعض النثريات وصولا إلى اقتحام عالم السّرديّات حديثا، حيث إنّ طبيعة كلّ عمل إبداعي أدبي واقع تحت مجهر التّطبيق المنهجيّ لأية دراسة نقديّة يختلف من بنية إلى أخرى، فمثلا ما يناسب عملا شعريّا قد لا يتوافق والسّرديّات.

الأمر الذي من شأنه جعل البلاغة تُعنى باهتمام كبير في حقول المعرفة بدءا بمقولات أرسطو، مرورا بالدّراسات العربية في أزهى عصورها الذّهبيّة وصولا إلى أطروحات التيّارات النّقديّة الحديثة، خاصة بعدما أحدثه الدرس اللساني من تطورات وبعث روح التجديد في المناهج الحداثية.

أضفى هذا التّطور على الحقل البلاغيّ صبغة علميّة من حيث الطّرح المفهوميّ، فبعد ما شهدته البلاغة في مسيرتها من تراكمات اصطلاحيّة عبر مختلف محطاتها التاريخية حاول الطّرح الحديث للبلاغة إعطاءها بعدا مفاهيميّا جديدا كونها أحد أهمّ وجوه المعارف والعلوم النّقديّة والأدبيّة، حيث بذلت مجهودات مهمّة في إعادة القراءة والتأسيس لجزئيات البلاغة متّخذة من التقعيد البلاغي القديم مرجعا ومصدرا لمنطلقاتهم الوضعيّة العلميّة، مواكبة للتّطور اللّساني الحاصل وما أحدثه من تغيرات منهجيّة من جهة ومحاولة لاحتواء مختلف الخطابات الأدبيّة المعاصرة من جهة أخرى.

فتباينت المدارس الأدبيّة والنّقديّة على اختلافها مشاربها في تكميل الرؤيّة، وفتح مجالات استيعاب النّص والسبيل إلى إنتاجه والوصول بالقارئ إلى أعمق مستوى من الفهم، ذلك عن طريق وضع مصطلحات بلاغيّة تعدّد استخدامها بين الواضعين لها وفق معاني في كثير من الأحيان كانت مختلفة التسميّات. فما الجديد الذي جاء به المفكرون؟ وأين يكمن التجديد في مجال البلاغة؟ وهل حقا هناك بلاغتين قديمة وجديدة وما طبيعة العلاقة بينهما؟

للفصل في الموضوع اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي تقفيا لما هو متداول في العديد من الدراسات الحديثة–على غرار محاولات العمري ومرتاض.

المبحث الأول

مصطلح البلاغة في التراث العربي

إذا ما تناولنا مصطلح البلاغة في المحاضن العربيّة فإنّنا سنصطدم لا محال بمجال النّقد، حيث إنّهما يُقسّمان ضمن مجال الأدب، ذلك القاسم المشترك الّذي قرّبهما وجمع بينهما« **فالنقد تحليل وكشف عن مواطن الإبداع»** [1] والبلاغة« **قواعد، تعيين المبدع على التعبير البليغ»** [2]، وعلى الرغم من أسبقيّة أحدهما على الآخر إلاّ أنّهما يجوبان ويلتقيان في حقل واحد هو الأدب؛ حيث إنّ النّقد يعتمد على المقولات البلاغيّة وهذه الأخيرة لا تقوم لها قامة دون حسّ نقديّ، لذا نلفي النّقد العربيّ القديم في مجمله نقدا بلاغيّا[3] ،أين كانت الآداب العربيّة قديما مبنيّة على المشافهة، تتّجه فيها البلاغة إلى لغة التّخاطب كمجال خصب يستعرض من خلاله المبدع مهاراته اللّغويّة من لفظ وتركيب وأسلوب، بغضّ النّظر عن أنواع النّصوص الّتي كانت ترصف والخطابات الّتي كانت تقال فـ« **لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه؛ فلا يكون لفظه إلى سمعك أقرب من معناه إلى قلبك»** [4] ، لذا اشترط في الكلام أن يجاري لفظه معناه حتى يستقيم ويستقرّ في ذهن السامع، وما كان غير ذلك فيشوبه التكلّف والصنعة والتنميق ينفر منه.

ثمّ إنّ للبلاغة وعائها ووسائلها الخاصّة الّتي «**يبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه، كتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن»** [5]. متكافئ تركيبّا يخلق تعبيرا جذابا ملفتا، يمتلّك السامع كتملّكه من الباث على نحو متساوٍ أو متقارب الوضوح والدّقة والتّأثير، يطابق به مقتضى حال المخاطب.

لا يتأتى ذلك للجمعاء وإنّما لفئة خاصة تجيد التّواصل مع الآخر ببراعة وحذاقة لغويّة آسرة ما يجعل «بلوغ **المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»** [6]، فحتّى يتاح للباث التّمكن من نسج كلام بلاغيّ على الوجه المطلوب، وجب أن يستوفي كلّ الشّروط الجماليّة الّتي تخدم المعنى الّذي يودّ إيصاله، ما يتطلّب فطنة وذكاء وخبرة عالية.

ويقول ابن خلدون في حديثه عن معنى البلاغة كونها تحقيق المتكلّم قصده المنشود في مخاطبه: «**اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة»** [7]. أي أنّ تحقيق البلاغة

لغايتها مواصفات تكمن في امتلاك لغة تعبير ذات مفردات دالة لها معاني قويّة تحتوي الفكرة المعبّر عنها في أبهى تركيب، آخذة بعين الاعتبار القصد المطلوب والمناسبة التّداوليّة.

يتجلّى لنا ظاهرا أنّ النّقاد العرب المأخوذ عنهم بعض هذه التّعريفات وآخرين لم نأتِ على إبداء تعاريفهم للبلاغة في هذا الشّق من البحث –اختصارا لتماثل وتقارب الوضعيات المفهوميّة للمصطلح–أنّهم اهتموا في وضعهم لماهية للبلاغة بعناصر العمليّة التّواصليّة من المتكلّم الذّي يشترط فيه أن يكون بليغا، و الكلام الّذي يشترط تركيبه وفق أساليب بلاغية محكّمة الصياغة، والسامع الّذي يسعى المخاطب إلى إقناعه و نقل الصّورة الّتي تسيطر على كيانه وبأمانة تامّة إلى ذهنه حتّى يستوي معه في الفهم والإدراك؛ شكل ذلك نظرية سابقة لأوانها مهّد لها نقاد العرب قديما.

المبحث الثاني

البلاغة الجديدة

لعل حديثنا عن البلاغة الجديدة يقودنا إلى سبق الغربيين في تأصيل مفهوم البلاغة وإعادة ضبط أطرها، انطلاقا من قراءة البلاغة اليونانيّة القديمة قراءة موازية لما أحدثته اللّسانيّات من تطوّر في الدّرس اللّغويّ والمجالات الإنسانيّة، الأمر الّذي يخلص الدّرس البلاغيّ ممّا لحقه من تشويه، وما شابه من تعقيد وتبسيط مخل، وما اتّصف به من معياريّة في التّصور القديم. ولما كان الهدف والمنطلق محددين، تباينت منطلقات الدّراسات والجهود المهتمة بمجال البلاغة، فانصبت اهتمامات البعض في مباحثة البعد الفلسفيّ المنطقيّ لأرسطو ممثلا في الحجاج كوسيلة ناجعة في محاورة الخطابات الحديثة، وبعضهم حول تركيزه نحو الوريث والبديل الشرعيّ للبلاغة مختزلا في الأسلوبيّة، بينما وجه البعض الآخر عنايته بعلوم النّص أو علم النّص واعتباره وجها عصريّا عاما للبلاغة[8]، وبين مجدّد ومختزل ومعمم ،تميّز الدّرس البلاغيّ بطفرة نوعيّة من التّجديد ونوع من الحركيّة جعلت منه علما مستقبليّا مستقلا واعدا، له من الشؤون والتنوع ما يستقطب أكثر من نسق معرفي يدارس مباحثه.

الأمر الّذي نتج عنه ميلاد توجهات معرفيّة حديثة تسبح في فلك علم البلاغة العام وتشكل معالمه، وجب الوقوف عليها لفهم النظريّة البلاغيّة المعاصرة وسبر أغوارها.

- **بلاغة الحجاج أو بلاغة البرهان:**

لقد اختلفت التراجم في تحديد تسميّة موحّدة لهذا الوجه البلاغيّ، فصار يجري التّعبير عنه تارة **بالتوجه الحجاجي المنطقي** [9] أو **الاتجاه الحجاجي (البلاغة حجاج وإقناع)**[10] أو **التحليل البلاغي الحجاجي** [11]، إلا أنّ جميعها تصبّ نحو ذلك التّوجّه القائم على الحجاج والمنطق والفلسفة والاستدلال ملغيا الانفعاليّة والاعتباط.

يعزى هذا الاتّجاه إلى صاحبيه بيرلمان شاييم Chaim Perelman وتيتيكا لبريشت-Lucie Olbrechts tyteca من خلال عملهما المعروف بمصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة أو مقال في البرهان: البلاغة الجديدة الموضوع سنة 1958م، معتمدين الطّرح الأرسطيّ البرهانيّ مع شيء من التّعديل والإضافة: «**كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر**» [12] حيث يرمي التّوجّه البرهانيّ لهما – بيرلمان وتيتيكا – إلى تجاوز الأجناس الخطابيّة المخصوصة بالحجاج الأرسطيّ (القضاء ، المشاورة ، الاحتفال) الّذي يشترط فيها حضور المخاطب ، ليشمل (الفلسفة ،والنّقد ، والقانون ، واللّسانيّات ، والفنّ ، و...إلخ) إذ لا يكون حضور المخاطب فيها لزاما وضروريّا ما يدعو إلى مراعاة جميع المتلقين في كلّ عصر وفي أية مناسبة وحسب ثقافة كلّ زمن ، فقد يتجلّى وجود المتلقي شخصيا –فردا أو جماعة– أو ضمنيّا غيابيّا (قارئا) – افتراضيّا أو محدّدا ، أو حتّى يمكن أن يكون ذاتيّا (المتكلّم نفسه).

وفق هذ الطّرح يتناول بيرلمان وشريكته فكرة المتلقي فيعززان حظوظه في عملية التّخاطب التّفاعليّة مهما كانت صفته ف« **الأهم في الحجاج ليس ما يعتبره الخطيب حقيقيا ومقنعا، وإنّ العبرة بالتقويم الصادر عن مخاطبيه**» [13]إذ إنّ الغاية من التّوظيف الحجاجيّ واضحة تكمن في إقناع الغير وإثارة فضوله إزاء قضية ما إما تسليما بالحجّة أو دحضها أو اقتراح بديل لها.

يثير ذلك قضية أخرى في النّظريّة الحجاجيّة المعاصرة تعود إلى أزمان غابرة ألا وهي قضية الإقناع والاقتناع حيث يقرّ بيرلمان معبّرا« **أن ما نبحث عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في القدم، منسي حاليا ومستهجن، هو البلاغة، أي فن الاقناع والاقتناع**» [14] فالشّق الأوّل الخاص بالإقناع عتيق الطّرح ينجلي حضوره جليّا واضحا في التّنظيرات البلاغيّة الأرسطيّة حيث تطرح الحجج وتقدّم البراهين محتملة أو ثابتة، تقديريّة أو مخادعة، يقتنع بها المخاطب اقتناعا تعسفيّا مجبرا لا مخيّرا، يوازي ذلك طرح جديد في الحجاج المعاصر حين اجتهد الثّنائيّ في إعادة تحوير فكرة الإقناع الأرسطيّ واعتماد الشّق الثاني الاقتناع محورا ركيزا للبلاغة الجديدة فـ« **غاية أي حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان ،فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه او الإمساك عنه) ،او هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة**» [15]فيتاح للمخاطب إمكانية الجدل والنّقاش (أخذا وردّا) في تمحيص ما يطرح عليه وما يقدّم له من حجج ، ويمنح له مجال الحوار والانفتاح عليها حتّى يحصل اقتناعه عن طيب خاطر وقناعة تامّة، إذ لا يكره عليه تقبّلها في شيء فيحصل له تبني الوهم والتّضليل والمغالطة مثلما كان يحدث في البلاغة الكلاسيكيّة.

يفيد الطّرح السابق حقيقة علمية مفادها أنّ البلاغة الحجاجيّة هي رؤية معاصرة لبلاغة أرسطيّة جديدة معارضة لبعض ما ألف من بلاغة للصورة والمحسنات الّتي من شأنها مجرد التأثير في الغير وامتاعه (أرسطو) ،وحسب طرح بيرلمان وتيتيكا فإنّ« **كلّ محسن هو حجاجي إذا ما كان استعماله في تأدية دوره لتغيير زاوية نظر ما معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة فإنْ لم ينتج عن الخطاب استمالة فإنّ المحسن مجرد زخرفة أسلوب مقصر عن أداء دوره»** [16] أي أنّ كلّ صورة تسهم في تغيير موقف المتلقي إزاء قضية ما فتحقّق الغاية والهدف تعدّ من صميم الحجاج وأحد مقوماته التّقنيّة لما لها من قيمة حجاجيّة أوّلا وإقناعيّة ثانيا، وإذا تعذّر أداء غايتها فإنّها تغدو مجرد مصدر للإعجاب والامتاع فقط.

- **البلاغة البنيويّة العامة:**

أو ما يعرف **بالتوجّه الأدبيّ (الشّعري)** أو **التوجّه الأسلوبيّ** [17]ظهر هذا التوجّه في منتصف القرن الماضي بفرنسا على يد الملقبين بالبلاغيين الجدد أمثال: **"جيرار جينت، وجان كوهين، وتودوروف، وجماعة "م" أو جماعة "ليجا" كما تسمى أحيانا"** [18] ما يفسّر نسب ولادته من رحم البنيويّة النّقديّة نتيجة إفرازات الشّكلانيّين.

ولعلّ ما يعلّل لبروز الدّراسة الأسلوبيّة في الساحة النّقديّة أنّها ظهرت «**على أنقاض العصر البلاغي المترهل، لتعمر نحو ستين عاما، كانت مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين أزهى سني حياتها»** [19]إذ بعدما تعرض الدّرس البلاغيّ الكلاسيكيّ إلى تلك الانتكاسة المعرفيّة حيث استنفذ جميع إمكاناته وطاقاته التّعليميّة ووسّم بالمعياريّة والعجز، ليعلن عن موته في نهاية المطاف، حلّت الأسلوبيّة محلّه كبديل ووريث شرعيّ تربّع على عرش البلاغة ممثّلا وجهها الجديد.

يعنى هذا التوجّه برصد البنيّات البلاغيّة الشّكليّة على مستوى النّص والخطاب وذلك بتحليل العلاقات التّركيبيّة والدّلاليّة وعلاقات التّضام الصّوتيّة [20] كون النّص / الخطاب ظاهرة إبداعيّة مبنية على آليات لغويّة وبلاغيّة تفرض نوعا من القراءة الوصفيّة داخل ذلك النّظام اللّغويّ (الكلمات والعبارات) لتتبّع الأحداث واستقراء الظواهر استخراجا للسمات الفنيّة والجماليّة الكامنة في النّص.

بعد رصد البنيّة البلاغيّة وبيان علاقاتها كمرحلة أولى من مهمّة البحث البلاغي الأسلوبيّ، وجّهت الأسلوبيّة كمرحلة مواليّة عنايتها بأثر تلك البنيّات الشكليّة على صعيدي الفكر والتّلقي «**فالأسلوبية هي اصطناع مجموعة من الفعاليات الأسلوبية للغة من اللغات لتجميل نسجها، وامتاع المتلقي به كما يمتع الموسيقار أذن سامعيه بأنغام الموسيقى»** [21] أي البحث والوقوف على مختلف الإمكانيات التّصويريّة والقدرات أو الطاقات التّعبيريّة المتاحة للمخاطب استعمالها وانتهاجها وسيلة وغاية في إثارة المخاطب.

يستقي التوّجه الأسلوبيّ مقولاته ومعالمه العلميّة بتقاطعه مع عدّة «**تيارات تحديثية تتزامن مع حركات تجديد أخرى مثل النقد الجديد والرواية والسينما الجديدة، وكلها تمثل ظواهر متقاربة في منبعها ومصبها»** [22]ما يجعل

المبحث الأسلوبي مسلكا علميا مشبعا بالعلوم والأنساق المعرفيّة المتقاطعة الحدود، المتعالقة فيما بينها كالشّعريّة والسيميائيّة والدّلالة والتّداوليّة ...إلخ.

➢ **التوجّه الخطابيّ السيميائيّ:**

ويساق بعبارات عديدة منها: التّحليل التّداوليّ للخطاب [23]، والاتّجاه السيميائي [24]؛ توجه يسعى إلى خلق بلاغة حاوية تضمّ مختلف أنواع الخطابات لأنّ «**البلاغة الإغريقية، واللاتينية، وكل النظرية الليسانياتية للسفسطائيين يمكن الإقرار بأنّها أشكال تداولية للخطاب**» [25] ما يحمل نوعا من التواشج بين البلاغة والتّداوليّة عتيق العهد معبر عنه منذ أزل من خلال تنظيرات متعاقبة تاريخيا.

ولما كانت قوالب البلاغة الجديدة تشتغل ضمن منطلقات تداوليّة، فإنّ الأخيرة بالذكر – التّداوليّة- «**تنطلق من هدف أساسي هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة وجعل المعني بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها ... والبلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما**» [26] يتّضح جليّا من خلال هذا القول تلك القواسم المشتركة الّتي تجمع الحقلين، فكون أنّ البلاغة تهتمّ بثلاثيّة العمليّة التّواصليّة ممثّلة في دور المتكلّم (المرسل) في افتعال التّأثير على السامع (المرسل إليه) بواسطة الوسائل المحدّدة (الرسالة :وهي الخطاب بكلّ أنواعه وأشكاله :لغة ،شعرا، نثرا، صورة ،إشهارا، رسما ، موسيقى ...إلخ)،فإنّ ذاك يعدّ من صميم الحقل التّداوليّ الّذي يعمل على جعل مختلف آليات وأفكار المرسل المتاحة له منفتحة على أي شكل من الأشكال الخطابيّة المعروفة (الرسالة)المعينة على التّأثير والمساعدة في تفعيل عمليّة إدراك المعني بها (المرسل إليه) .

تطابق الغايات والأهداف بين العلمين واقترانهما على المدى القريب والبعيد و«**مثل هذه الخاصية التي تتمتع بها هذه النظرية تجعل منها أداة شديدة الفعالية لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي حدودها ولا تنغلق آفاقها**» [27] فسيرورة تعدّد القراءات وتنوعها يضمن ديمومة وتحديثا مستمرّا لمقولات الحقلين.

فهذا هنريش بليت قد استثمر الانفتاح التّداوليّ في مقاله: **البلاغة والأسلوبية** لتوسيع مجال البلاغة وجعلها علما للنّص، منطلقا من وضعه الأبعاد الثلاثة للخطاب: التّركيب، الدّلالة، التّداول [28]، يتمّ رصد العلاقات التّركيبيّة نحويا بين الجمل داخل النّص (اللّغة)، ومن ثمّ الوقوف على دلالة تلك التّراكيب وفحص علاقتها بالموضوع المعالج، ينجم عن ذلك وصف لطبيعة اللغة بين طرفي التّواصل مجسّدا في مدى تحقّق المقصديّة؛ ذلك كلّه يحصّل الاهتمام والإلمام بمختلف جوانب العمليّة الإبداعيّة من نسق وسياق ومقام.

المبحث الثالث

مصطلح البلاغة في الدراسات العربية الحديثة:

لعلّ ما أصاب الدّرس اللّغويّ حديثا من تطوّر واهتمام علميّ ملحوظ أفرزته الدّراسات والبحوث الغربيّة حول ما سمّي باللّسانيآت، أدى إلى ضرورة مواكبة التّطوّرات الحاصلة، ومحاولة مقاربتها بمختلف الموروثات العربيّة القبليّة، شكّل ذلك مبادرة الخروج من بوتقة التنميق والزخارف اللفظية الّتي آلت إليها المفاهيم البلاغيّة وشهدتها بشكل خاص في ثقافتنا العربيّة لتشهد بوادر عصر جديد من اهتمام وعناية المحدثين العرب، الّذين سعوا إلى خلق نوع من التّجديد في طرح مسائل البلاغة خاصة في ظلّ ما عرفه العصر الحديث من مذاهب أدبيّة وخطابيّة مختلفة.

ولنا محاولات كثيرة في النقد العربي نخص منها المغاربي الحديث والمعاصر باجتهادات كل من: محمد العمري وعبد الملك مرتاض–أنموذجين.

أ–نظرية عبد الملك مرتاض البلاغية:

لعبد الملك مرتاض العديد من الكتابات النّقديّة والأدبيّة في النّقد العربيّ الحديث والمعاصر ولعلّ الأبرز منها علاقة بموضوع مداخلتنا هي محاولته الجريئة والمحكمة في **نظرية البلاغة– متابعة لجماليّات الأَسْلَبَة: إرسالاً واستقبالا**، والّتي سعى من خلالها إلى إعادة ترتيب وهيكلة مفهوم البلاغة العربيّة وكشف حقيقتها تأسيسا لنظرية بلاغيّة وفق ما يعرف بالبلاغة النقديّة حيث يتمّ التعّامل مع البلاغة كعلم أو مدرسة؛ باعتبار ذلك قام مرتاض بتقديم مفصل لنظرية البلاغة العربيّة معتمدا كلّ الخلفيات التاريخيّة والمعرفيّة للمصطلح البلاغي جامعا بين جاذبيّة الأصالة ومغريات الحداثة والمعاصرة؛ فتطرّق إلى العديد من القضايا والمواضيع والمشكلات العلميّة والمعرفيّة الّتي تصبّ في مجال النّظرية البلاغيّة وتحرك معطياتها؛ مدافعا من جهة عن الموروث العربيّ لنقادنا القدامى فـ" **التراث العربي الأصيل حداثة متوجهة** "مادام الهدف الأسمى من المخزون التراثيّ لبلاغتنا العربيّة هو الحفاظ على اللّغة ومراعاة سلامة تطوّرها كوجه من أوجه الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فإنّ البحث فيها في صيرورة دائمة وعمليات إعادة قراءة مقولاتها لا تزال مستمرة واستكشاف مكنوناتها متواصل؛ ومن جهة أخرى داعيا إلى تغيير مناهج تلقين الدّرس البلاغي معارضا عمليّة الاستشهاد له بأمثلة مقتلعة من أصولها القديمة كثوابت محنطة، في حين —حسب مرتاض– يمكن خلق البديل في تقرير نصوص أدبيّة أنيقة تزخر بملامح بلاغيّة جديدة تبعث روح التجديد في البلاغة العربيّة معترضا على الوقوف عند تاريخ البلاغة وتلخيصاتها وشروحها، وأنّ ذلك يتطلّب عقلا واعيّا ورؤيّة نقديّة قادرة على الرّبط بين المنطلقات والمعالم القبليّة والمعطيات العلميّة المستجدّة كما فعل مرتاض في نظرية البلاغة .

لعلّ القارئ لمؤلف مرتاض في نظرية البلاغة سيقف عند مستهله وقفة متمعنة يتقفى من خلالها منطلقات ورؤى الناقد المنادي في مقدّمة منجزه إلى ضرورة إعادة النظر في مفهوم البلاغة مثيرا العديد من الإشكاليّات النقديّة حيث يتساءل حول: **الغايات التي تسعى البلاغة إلى تحقيقها: أهي وصفية أم مجردة؟ أم هي جمالية فنية؟ وهل**

انتهى عصر البلاغة وجاء عصر اللابلاغة، حقا؟ وهل من بلاغة جديدة حقا؟[29] وللإجابة عن ذلك عبر مرتاض محطات مختلفة استفاض فيها بالشرح والتّفصيل عبر ستّة فصول لكلّ منها شأن معلوماتي مترامي الأطراف تستوجب من متلقيها امعان الدّراسة.

يعرض مرتاض في مقدمة نظرية البلاغة مجموعة من أهمّ التعّاريف المتداولة والمتناقلة الواردة في المعاجم حول مفهوم المصطلح البلاغي مذيلا لذلك بما جاء على لسان الجاحظ في مؤلفيه **الحيوان والبيان والتبيين** هذا الأخير الّذي عني بحقيقة البلاغة والبيان منذ عهدها البشريّة في كلامها، وحسب مرتاض فإنّ الجاحظ كان يجنح من خلال بيانه **(البيان والتبيين)** إلى تأسيس نظرية ما يطلق عليها حديثا **التبليغ** أو **الإيصال** وذلك له إشارات في الحيوان أيضا حيث: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال...[30] أدوات تقوم على إثرها نظريات التواصل والإبلاغ.

والجدير بالذكر أنّ مرتاض ينبّه وينوه من خلال تقديمه لمفهوم البلاغة ووظيفتها استنادا على ما جاء به الجاحظ أنّ العديد من أممّ المعمورة قد اشتغلت بالبلاغة قبل العرب فترة من الزمن، خاصة الفلاسفة الإغريق وأبرزهم أرسطو في فنيّ الشّعر والخطابة، وكثيرا ما تختصر البلاغة في الفكر الغربي في فنّ القول الجميل كون وظيفتها ضرب من نظريات الخطاب.

وقد رجح مرتاض سبب عزوف وتجاوز مفكري النقد الغربيّ الحديث منجزات الفكر العربيّ البلاغي القديم قائلا: «**ولعل الذي حمل الغربيين المعاصرين على تجاهل الجهود البلاغية العربية أنها تجانفت كثيرا للتطبيقات على بعض الآيات القرآنية، وبعض الأبيات الشعرية، وبعض النصوص الأدبية النثرية الرفيعة النسج، مجزأة مقزعة، دون التركيز على الشق النظري في مفهوم البلاغة، الذي لم يكد يعنى به إلا أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، ثم من بعده أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي...** »[31] فأهمل العرب الجانب النظري وأولو التطبيق كلّ عنايتهم اهتمامهم ما جعل سعيهم وجهودهم غير ممنهجة لصرف النظر عنها.

ويبدأ التناول الفعليّ-حسب مرتاض-بحدود البلاغة اشتغالا على حقيقتها في التراث العربيّ مع عبد الله بن المعتز في كتاب البديع الّذي حوى قضايا بلاغيّة متنوعة من مكوّنات وتعريفات وأقسام ومحسنات.

ويعرف مجال الاهتمام بالبلاغة توسعا بعد البديع اشتغالا بمفهوم البيان كفرع بلاغي مستقل مع الرّماني في **النكت في الإعجاز القرآني** حيث تعرف البلاغة« **أنّها ليست هي (إفهامَ المعنى، لأنّه قد يفهم المعنى متكلّمان: أحدُهما بليغ، والآخر عَيِيّ، ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللّفظ على المعنى، لأنّه قد يحقّق اللّفظ على المعنى وهو غثٌّ مستكرَه، ونافر متكلِّف، وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حُسْنِ صورة من اللّفظ، فأعلاها طبقةً في الحسن بلاغة القرآن. ويقوم هذا التعريف، كما نرى، على محورين اثنين: أحدهما هو التبليغ من حيث هو على وجه الإطلاق، وهي الوظيفة الأولى للغة في حقل البلاغة، وهو ما يناقض معنى العيِّ والفَهَاهة. وأحدهما**

الآخر، هو حُسْن التبليغ، أي ما يمكن أن نطلق عليه بتعبير معاصر (جماليّة الإرسال) من أجل التّأثير في المتلقّي، وأسْر انتباهه فيتلذّذ باستقبال الرسالة الكلاميّة المبثوثة إليه في أحسن صورة» [32]وفي نظر مرتاض محاولة الرّماني في تعريف بلاغة القرآن الكريم أكثر منهجيّة تفصيلا ووضوحا حيث يتمّ الجمع بين اللّفظ والمعنى إذ الغاية منهما« **إيصال المعنى إلى المتلقيّ في أحسن صورة ممكنة من نسْج الألفاظ. وهذه هي النظريّة البلاغيّة التي وقع الاتّفاق عليها لدى نهاية الأمر »**[33] ولربّما بذلك يتبوأ اجتهاد الرّماني المكانة الأولى ويمكن الجزم أنّه أسبق الأعمال البلاغيّة العربيّة إلى تأسيس علم البلاغة في رأي مرتاض، فقد حدّدت محاولته البلاغة في ثلاث طبقات« **حين قرّر أنّ منها ما هو في أعلى طبقةٍ، ومنها ما هو في أدنى طبقةٍ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقةٍ وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقةً فهو مُعْجِز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن، كبلاغة البلغاء من النّاس »**[34] يجعل هذا التّحديد من الرماني مفكّرا ومنظّرا بلاغيا، وعليه يقرّ مرتاض بأثر القرآن في تأسيس نظرية البلاغة كونه مصدرا لظهور وتطوّر العديد من العلوم، ففي قوله تعالى: **{قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا}**[35] تشكّل الآية نقطة انطلاق البحث البلاغي العربيّ اهتماما بالمسألة الإعجازيّة وإعلانا لنشأة بلاغة عربيّة شغلت بال الكثير من العلماء وأفاضت وعاء العلم بما جادت به كتاباتهم.

كما يشيد مرتاض بمنجز السكاكي في مفتاح العلوم ويعدّه مؤلفا بلاغيّا منهجيّا ملماّ بفرعي البلاغة: المعاني والبيان[36] مؤكّدا على أنّه مثّل بوادر الانطلاقة الحقيقيّة للتفكير في وضع نظرية بلاغيّة كانت قبله غائبة إذ ما سبقه من إشارات وتلميحات لدى السابقين تنقصها الدّقة، في حين نلفي السكاكي من خلال تقسيماته أنّه نظر إلى أدوات البلاغة في تكوينها كما نظر إليها الغربيون، يجيء بالتمثيل توضيحا لفكرة وليس لتحليلها جماليّا أو فنيّا.

ما اصطلح عليه بعد السكاكي قد أصبح في القرن العشرين مفهوما للبلاغة متداولا في الأوساط المدرسيّة والتعليميّة، يعنى بثلاثة حقول أسلوبيّة: البيان والمعاني والبديع. اجترارا لما عرضه السكاكي ومن سبقه دون إثراء أو تعديل فقدّمت الأمثلة للتلقين والتعليم مشكلة أولويات البلاغة في عمومها.

نتج عن بحث مرتاض العميق في التراث العربيّ وقراءته المتمعنة في قضايا الحداثة تفطنه ووعيه باختلاف المصطلحات وتوحّد المفاهيم واضعا الميراث البلاغي أمام مناظرة مع المفاهيم السيميائيّة، من ذلك مصطلح **البرغماتيّة** أو **التداوليّة** في السيميائية المعاصرة والتّي تعنى بالمسكوت عنه أو المضمر في تحليل الكلام هو ما أسس له **الجرجاني** في نظريته **معنى المعنى** في القرن الخامس الهجري؛ وأما ما عرف في البلاغة العربية مع **ابن المعتز** في **البديع** وبعده **المعاني** هما ما شاع صيته وجُمعا في الاصطلاح الحديث تحت مفهوم **الأسلوبية**، ثمّ إنّ ما يصطلح عليه اليوم **بالانزياح** كان قديما يعرف **بالعدول**[37] وغيرها الكثير ما هي إلا مصطلحات أدبيّة وضعها وتداولها القدماء ذات أصول وجذور

ضاربة في عمق التراث البلاغي العربي اكتسبت مسميّات جديدة مواكبة لحركة التطوّر والتجاذب الثقافي الّذي تشهده العلوم حديثا.

ويسلط مرتاض الضوء على مسألتي **الصورة البلاغية–الشعرية وبلاغة التلقي**؛ فيرى في مفهوم الصورة أنّها تكمن في « **انزياحات اللّغة الشعريّة المعاصرة الخالية من ذلك، من حيث لم تكن الصورة في الكتابات الأدبيّة القديمة تكاد تستغني عن أدوات البلاغة تتّخذها في نسجها، والصورة هي ثمرة التصوير الفنيّ بوساطة لغةٍ شعريّةٍ لفكرة أو عاطفة أو رعْشة أو غضبة في لحظةٍ تشبه الفلته السانحة؛ فهي تنتأُ في النّسج الأدبيّ الجميل فتكون فيه بمثابة التّاج الذي يتوّج التّعبير فيمحّضه للأدبيّة الرّفيعة، ويجعله متميّزاً في نسْجه عن سَوائه، من الكتابة النثرية**»[38] حيث إنّ اعتماد الأشكال البلاغيّة التقليديّة حسيّة وماديّة و الاكتفاء بصورة أدبيّة واحدة يحدّ من العمليّة الإبداعيّة ويجعلها عقيمة، لذا يدعو مرتاض إلى ضرورة تحرير الصورة البلاغيّة من قوالب أدوات البلاغة الجاهزة مسبقا(استعارة، مجاز، تشبيه، كناية...)، وفسح المجال لحريّة الخيال في عمليّة التّصوير الأدبيّ إذ إنّ ذلك لا ينقص من قيمته الفنيّة في شيء، بل تصبح الصورة أكثر تجسيما للأشياء المجردة وتزيد شحنها بمدلولات غير مألوفة ما يحقّق تصويرا فنيّا جماليّا بلغة شعريّة في التّعبير عن أية أيديولوجية معينة أو عاطفة محدّدة. وقد أولى مرتاض قضية بلاغة التلقي اهتماما ملحوظا حيث لاحظ أنّ السابقين يهللون لبلاغة الإرسال مغفلين أهميّة الإدراك الجماليّ لبلاغة التلقي، ذلك أنّ المتلقي إن لم يكن كفأ لاستقبال الرسالة الأدبيّة فإنّ النّص المرسل يفقد علّة وجوده، ومنه كان لزاما أن تضاهي كفاءة القارئ كفاءة المرسل من حيث مستوى الفهم والإدراك تحقيقا لجماليّة الأدب مهما اختلفت الأذواق والميولات.

أما موضوع البلاغة الجديدة حسب مرتاض أنّ شانها من شأن النحّو، فكما لا يجوز الاستغناء عن النّحو في ديباجة الكلام لا يجوز الاستغناء عن البلاغة أيضا بأي شكل من الأشكال عبر كلّ العصور وفي جميع الأمصار ومع مختلف الأمم. ثمّ إنّ البلاغة في نظر مرتاض زئبقيّة الاستعمال متداولة بين العامة وليست حكرا على الخواص من مثقفين: كالعلماء والمحامين ومتعلمين كساسة وخطباء ورجال الدين فقط[39] بل هي حاضرة في حواراتنا اليوميّة وآدابنا الشعبيّة، في كلّ لون لغويّ، ولربّما يستعملها العوام على الفطرة والسليقة دون دراية مسبقة. ومادام الأمر كذلك يرى مرتاض أنّ الحديث عن نظرية البلاغة يستوجب نظرة فذّة وتفكيرا نافذا ذلك أنّ قضاياها ومواضيعها متنوعة ومتشابكة تتطلّب الكثير من التّعمق والتّخصص في الدّراسة والبحث.

ب–المشروع البلاغي لمحمد العمري:

من أبرز الأسماء العربيّة المعاصرة مساهمة في إحياء البلاغة وتطويرها **محمّد العمري** صاحب المشروع البلاغيّ العربيّ الجديد، وله في هذا العديد من الإسهامات النّقديّة يظهر فيها اهتمامه بمجالات البلاغة عامّة قديمة

كانت أم معاصرة فمن منتجاته الفكرية يذكر : في بلاغة الخطاب الإقناعي–مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية1986م، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها1999م، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول2005م، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة2013م، وترجمته لـ: البلاغة والأسلوبية–نحو نموذج سيميائي لتحليل النص لهنريش بليت 1989م، الأمر الّذي يجعله يصول ويجول ملمّا بتفاصيل الموضوع محاورا أي دارس عربيّ أو باحث يخوض في مفهوم البلاغة المعاصرة وشؤونها، ذلك أنّ العمري نفسه يبحث عن مفهوم محدّد للبلاغة الّتي تداولها العلماء أمدا من الزمن ولا زالوا يخوضون غمارها،«**فمن حق من درس في جامعاتنا، من المحيط إلى الخليج، أن يسألني الآن: عن أية بلاغة تتحدث»** [40]، إذ ذاك يشكل دافع البحث ومحرك الدّرس البلاغي طوّرت من خلاله المحاولات الغربيّة طرحها البلاغيّ؛ وللإجابة عن ذلك يقدّم العمري للبلاغة في مؤلفه **البلاغة الجديدة بين التخيّيل والتّداول** حيث يعرفها على أنّها«**علم الخطاب الاجتماعي الهادف إلى التأثير والإقناع أو هما معا إيهاما وتصديقا»** [41] أي أنّ البلاغة الّتي يقصدها العمري ويصبّ اهتمامه وعنايته بها تقع وفق شكلين هما :

- بلاغة خاصة بالخطاب التّداولي الحجاجيّ.
- بلاغة خاصة بالخطاب التخيّيلي الشّعريّ.

ولا يقف العمري عند حدّ التّمييز لبلاغة الخطاب بل يزيد طرحه تأكيدا وفكرته توضيحا في هذا الصدد فيرى في فصله: «**بلاغة شعرية، ذات دعم لساني، وبلاغة خطابية ذات دعم منطقي فلسفي، الأمر الّذي سمح لبعض الباحثين بالحديث عن بلاغة لسانية وبلاغة فلسفية. الأولى نشطت في امتداد الحركة الشكلانية المتأثرة بلسانيات دوسوسير، والثانية نشأة عن توسيع المنطق نحو الخطاب الطبيعي وفلسفة القيم مع بيرلمان وغيره من الباحثين. ويهمني أن أذكّر هنا بظاهرة دالة، وهي الالتقاء غير المبيت بين الباحثين في نظرية الأدب والباحثين في نظرية الإقناع حول ضرورة الرجوع إلى العلم القديم للخطاب وهو البلاغة»** [42] نظير هذا يرى العمري أنّ النوعيين البلاغيّين متلازمين في الساحة النّقديّة العربيّة والغربيّة قديما وحديثا ويدعو إلى مقاربة المستجد بالعتيق، وهو ما شغل باله، وحرك فكره، وشكّل معالم هدفه الأسمى وغايته الفضلى في الاهتمام بمجال البلاغة عامة انطلاقا من:

- ضرورة التّمييز بين ما هو شعريّ وما هو خطابيّ، وما يمكن أن تحدثه خصائص ومقومات الجنسين من إثراء نقديّ وتنويع دراسي.

- إنّ الفصل الّذي وضعه بين الشّعريّة والخطابيّة ليس فصلا حقيقياّ، وإنّما كان لغاية الإيضاح والشرح لا غير، إذ لا ينفك يبدي إعجابه بالنمطين، بل ويؤسس لبلاغة عامة تحتويهما معا.

ولما كانت البلاغة علما كليّا جامعا بين صناعتيّ الشّعر والخطابة ،رغم أنّ خصائصهما تتمايز وتتداخل أحيانا نظرا لطبيعة كلّ جنس منهما ؛فإنّ فكرة العمري في مشروعه هذا والمتمثّلة في البلاغة العامة لم يأتِ بها من العدم ،بل تقصاها وألف حضورها في التراث العربيّ ،فتبناها وجعلها مبرّرا لشرعيّة رؤيته في دراساته وحواراته في **أسئلة**

البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة حيث يجعل :« **للبلاغة العربية ،إذن ،مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين : مسار البديع يغذيه الشعر ،ومسار البيان تغذيه الخطابة ، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي ، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم جهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته»** [43] يؤكد العمري اعتمادا على طرحه هذا فطنة ودراية العرب القدماء بقضيّة البلاغة العامة منذ بواكير انفتاحهم على الثقافة الغربيّة ، رغم أنّ البديع كان مقتصرا على الشّعر يبعث فيه الجمال والتّخيّيل ،وكان البيان مرتبطا بالخطابة يبحث فيها عن المعرفة والإقناع ، إلا أنّ الحقلين كانا يشهدان نوعا من التّعالق والتّجاذب الملحوظ فظلاّ –الشعّر والخطابة– يمثلان تحت لواء البلاغة ؛ هذا التّداخل يرى فيه العمري مزيّة وإضافة للنّقد التّأويليّ .

فإلى جانب ذلك وحسب رؤية العمري تنضوي البلاغة عموما بقديمها وحديثها تحت لواء ثلاثة تيارات متباينة والّتي يمكن أن نجملها في:

- تيار شعري بديعي: قائم في الأساس على دراسة الصّور البديعيّة، تاريخيا هو الأسبق في البلاغة العربية القديمة، يمثله ابن المعتز(ت296هـ) بمؤلفه البديع في الشّعر والنثر؛ أما في الدّرس البلاغي الحديث أبرز ممثليه مجموعة Mu وليبج البلجيكية.
- تيار بياني خطابي: قائم في الأساس على العناية بأساليب الإقناع وبناء الحجج في الخطاب بعيدا عن الشّعر، أبرز ممثليه في الثقافة العربية القديمة الجاحظ (ت255هـ) بالبيان والتبيين؛ في حين يمثله بيرلمان ونظريته الحجاجية في الدرس البلاغي الحديث.
- تيار البلاغة العامّة: غايته الدمج بين التيارين السالفين بالذكر لخلق بلاغة عامة، ممثليه قديما عند العرب أبو هلال العسكريّ (ت395هـ) في الصّناعتين، وحازم القرطاجني (ت684 هـ) في منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛ أما غربيّا فيعدّ هنريش بليت أبرز ممثليه بمؤلفه البلاغة والأسلوبية.

ولابدّ من التنويه إلى أنّ العمري دقّ باب علم البلاغة الجديدة معتنيا بالحجاج كمحور رئيس في البلاغة العربية القديمة حيث تظهر أهمية «**الحجاج خاصة في البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بكلام الله وقضية خلق القرآن والصفات، حيث بدأ مع تناول هذه القضايا الاهتمام الفعلي بتوظيف الآليات اللغوية والبلاغية والسياقية المقامية من أجل ترجيح قضية ما على غيرها»**[44]دون أن يغفل عن دوره الفعّال في الإقناع مصرّحا بذلك في قوله: «**أردت أن أنبه فيه إلى البعد الإقناعي للبلاغة العربية ...وقد أعجبت كثيرا في هذه المرحلة بعمل بيرلمان Perelman وتيتيكا Tytecca لعمقه وبساطته»** [45] ما ينمّ على أنّه إلى جانب تمسكه الشديد بالمخزون التراثي العربي القيّم لم يسلم من التأّثر بطرح الوافد الثقافيّ الغربيّ المعاصر في مجال البلاغة ممثّلا بالإقناع

والحجاج في الفكرين، فزاوج بين الثقافتين مستغلا ذلك وحاملا له إلى خلق فكر عربيّ معاصر، أين شغل له حيّزا ملحوظا في مختلف إسهاماته.

إذ حول قضيّة الحجاج والبلاغة ينطلق العمري متسائلا عن طبيعة العلاقة الّتي تربطهما ليقف عند حدّين لمفهوم الحجاج: لساني ومنطقي؛« **فالحجاج في (المفهوم اللساني) ليس أكثر من مادة أولية بالنسبة للحجاج في (التداولية المنطقية) الّتي تشترك مع البلاغة الجديدة في تجنيس الخطاب**»[46] فحجاج المفهوم التداولي اللّساني يشكّل مبحثا جزئيا يجد ضالته في كلّ الخطابات لاسيّما الخطاب الحواري إذ ما من كلام إلا ومعناه مرتبط بسياق ما. في حين أنّ حجاج المفهوم التداولي المنطقي يعنى بالخطاب الخالي من البرهان« **يلامسه ويلابسه مستعيرا بعض صيغه وأسيقته ثم ينحدر في درجات الاحتمال** »[47]. وبين النّص الحجاجي وغير الحجاجي تطرح درجات الحجاجيّة فيحبّذ "**التفريق بين الخطابات التي تستهدف الحجاج والاقناع والخطابات التي لا تستهدف ذلك، ولكنها لا تخلو من بعد حجاجي ناتج عن السياقات الموجهة للخطاب** »[48]إذ لا يمكن الجزم بوجود الحجاج في كلّ الخطابات.

أما بالرجوع إلى العلاقة القائمة بين البلاغة والحجاج فإنّها« **تمتد من المطالبة بقطيعة جذرية إلى القول بوجود توازن بين ما اعتبر مبحثين متمايزين ومتكاملين إلى حد ما، وصولا إلى اقتراح دمجهما في نشاط لغوي واحد** »[49]خاصة وبعد النظر في حدّي الحجاج –اللّساني والمنطقي–فإنّه يمكن الأخذ بالفصل بينهما إذا ما ارتبط الأمر بالمنطق والدمج بينهما إذا ما تعلق باللّسان.

خاتمة:

إنّ حقل الدّرس البلاغي شاسع وواسع مترامي الأطراف لا يحدّه حدّ ولا تسعه مصنفات ولا يكفيه مداد بحر لو جئنا بمثله مدادا، ينتهي بنا التّجوال في غياهبه نحو الخروج بجملة من النتائج النسبيّة حيث:

يمكن القول إنّ المشروع العلمي لمحمد العمري ونظرية البلاغة لعبد الملك مرتاض قد ساهما في فتح آفاق جديدة للدّراسات البلاغيّة والنقديّة نوجزها فيما يلي:

1. رد الاعتبار للبلاغة العربيّة القديمة بإعادة النظر في مختلف جميع مستوياتها ومصطلحاتها ونفض غبار النسيان عنها الّذي ظلّ يحول دون معرفتنا الحقّة بكنوز تراثنا.
2. تطوير آليات التنظير البلاغي باعتماد المقاربة المنهجية للموروث البلاغي العربي القديم واستثمار أنموذج البلاغة الجديدة وافد الدرس الغربي الحديث، توليدا لمعرفة جديدة واعية منهجية بالانفتاح على قراءة معارف قديمة ومعاصرة.
3. توسيع نطاق الخطاب الحجاجي والإقناعي والمعرفي العام للبلاغة العربية، واسترجاع المفهوم البلاغي الجديد لبعدها التداولي الحواري.

4. رجوع ذلك البعد المفقود المتمثل في تجاذب المجال الأدبي والفلسفي المنطقي.
5. استفادة الدرس البلاغي الحديث من علوم اللسان كاستثماره لمعطيات المجالين اللساني المنطقي والفلسفي في التنظير لمصطلح بلاغة الحجاج.
6. جعل البلاغة علما كليا قادرا على استيعاب مختلف الخطابات التحليلية والتداولية الهادفة إلى إحداث التأثير والإقناع.
7. تزويد القارئ العربي بمعالم الدرس البلاغي الحديث وتنوير فهمه بإزالة الغموض واللبس الذي قد يكتنفه في تلقي معطيات التنظير بتوضيح المقدمات الفعلية للمصطلحات البلاغية ومفاهيمها الأساسية وتوجهاتها المعرفية.
8. اتسمت محاولتي العمري ومرتاض بالقراءة التركيبية التي سمحت لهما بتحليل محتويات النظريات البلاغية والخوض في مختلف أبعادها عن وعي ومعرفة فذة ونظرة ثاقبة بإشكالياتها.

إنّ الحديث عن منجزات التّنظير البلاغيّ في النّقد العربيّ المغار بي الحديث تتنوّع وتتعدّد تعدّد أقطابه ومفكريه ذلك أنّ موضوع الدرّاسة في حدّ ذاته متشعب يطول ويتّسع مجالا، وإنّ وقوع النّظر على منجزين نقديّين لا يعني الإلمام بتفاصيل الدّرس البلاغيّ العربيّ الحديث وإنّما يبقى الاجتهادين غيض من فيض، هذا الفيض الّذي يستلزم وقوفا واعيّا وانفتاحا منهجيّا أثناء الخوض في غمار جميع مراحل القضيّة البلاغيّة ومحطاتها المعرفيّة والعلميّة.

فحسب قول شايم بيرلمان:"كل بلاغة تتمركز على أشكال محددة في التفكير والأسلوب، ولا تحاول توسيع نطاق تطلعاتها إلى أقصى حد ممكن، ولا أن تتعاطى مع الحجاج البلاغي المعني بالقيم في مجمله مصيرها الزوال سريعا لا محالة" وعليه وجب:

- فتح مجالات التعاون العلمي والمعرفي بين النقاد والمفكرين العرب وتشجيع روح العمل الجماعي عن طريق تكثيف اللقاءات والندوات الأكاديمية، ما دام الهدف الأسمى من التراث هو الحفاظ على اللغة ومراعاة سلامة تطورها كوجه من أوجه الحضارة العربية الإسلامية، إذ إن البحث فيه في صيرورة دائمة وعمليات إعادة قراءة مقولاته لا تزال مستمرة واستكشاف مكنوناته متواصلة ضبطا لحقيقة مصطلحاته.
- تغيير مناهج تلقين الدرس البلاغي بتجاوز الشواهد البلاغية المقتلعة من أصولها القديمة كثوابت محنطة، وخلق البديل في تقرير نصوص أدبية أنيقة تزخر بملامح بلاغية جديدة تبعث روح التجديد في البلاغة العربية.

المراجع:

1. السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط2، 1987.
2. أبو الهلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د ب، ط1، 1952.
3. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب، د ط ،2014.
4. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1992.
5. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق–سوريا، ط1، 2012.
6. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران–الجزائر، ط02، 2010.
7. محمّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة: دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، د ط، 2013.
8. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب، ط2، 2005.
9. محمد العمري، البلاغة والحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت،2012، مج40، ع4.
10. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت–لبنان، ط1، 2008.
11. محمد عبد الرزاق بوعافية، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة: قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2018.
12. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت–لبنان، ط1، 2006.
13. محمد مشبال، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الخطاب، ط1، القاهرة: دار العين للنشر، 2010.
14. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جبور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.

الهوامش:

1. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت–لبنان، ط1، 2006، ص06.
2. المرجع نفسه، ص 06.
3. نفسه، ص 06.
4. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران–الجزائر، ط2، 2010، ص 26. نقلا عن: الجاحظ، البيان والتبيين، تح: حسن السندوبي، القاهرة،1947، ص 127 .
5. العسكري أبو الهلال، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د ب، ط1، 1952، ص 10.
6. السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط2، 1987، ص 415.
7. بن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق–سوريا، ط1، 2012، ص 622.

8. ينظر: محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب، ط2، 2005، ص 66.
9. ينظر: المرجع نفسه، ص 67.
10. ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء–المغرب، د ط، 2014، ص 80.
11. ينظر: محمد مشبال، البلاغة والأدب، دار العين للنشر، القاهرة–مصر، ط1، 2010، ص 50.
12. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1992، ص 65.
13. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص32. نقلا عن:

Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-tyteca: traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique,Presses Universitaires de France ,Paris ,1958,p31.

14. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص69. نقلا عن: L'empire rhétorique p 9.
15. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت–لبنان، ط1، 2008، ص 107/108. نقلا عن:

Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique. Préface de Michel Meyer, Bruxelle : Université de Bruxelles ,05 éd, 1992, p59.

16. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 31. نقلاً عن:

، Chaim Perelman et Lucie Olbrechts –tyteca ,p.36

17. ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص72.
18. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص66.
19. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جبور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص79.
20. ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 140.
21. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص176.
22. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص66.
23. ينظر: المرجع نفسه، ص88.
24. ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 84.
25. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص155. نقلا عن:

CF.Morris,Foundatios of the théorie of signes , Chicago ,1938,(Encyclopédie de la science Unifiée).

26. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص 175/176.
27. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص 173.
28. ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 78.
29. ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص7.
30. ينظر: المرجع السابق نفسه، ص 23.
31. المرجع السابق نفسه، ض21.
32. المرجع نفسه، ص29.

33. نفسه: ص99.

34. نفسه: ص98.

35. سورة الاسراء، الآية:88.

36. ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص56.

37. ينظر: المرجع السابق نفسه، ص 144. 145 .

38. المرجع نفسه، ص 183. 184.

39. ينظر: نفسه، ص 290/278.

40. محمّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة: دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، د ط، 2013، ص 17.

41. محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التداول والتخييل، ص06.

42. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 51/50.

43. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، المرجع نفسه، ص 29.

44. محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 261.

45. بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة: قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2018، ص97. نقلا عن محمّد العمري:www.medelomari.com

46. محمد العمري، البلاغة والحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2012، مج40، ع4، ص 264.

47. المرجع نفسه، ص 264.

48. نفسه، ص273.

49. نفسه، ص272.